

التاريخ في سبر أبطاله

ابراهيم لنكولن

هزيمة الاصراع الى عالم المربية
للأستاذ محمود الخفيف

- ٦ -

—>>><<<—

يا شاب الراى ! خذوا معانى العظمة في
نسبها الأعلى من سيرة هذا العصى العظيم

وما حيلة الطب في نوازل توبق الروح ، وهو اجس تعمى القلب ؛
وإن بدت آثار هذه وتلك في نواحي البدن عجز الطبيب ، ولا عجب
أن يعجز ، وجاء الصديق ليفعل ما لم يستطع الطبيب أن يفعل ،
وهو خبير بالملة عليم بموضعهما من نفس صاحبه

باع سييد خانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكى فمضى
على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك عله يشقى مما به في
تلك الأحراج التي درج منها أول ما درج . دعاه سييد أن ينزع
نفسه وجسمه من ذلك البلد الذى يكرهه الميث فيه بعد أن كان
منتجع آماله ومهوى خواطره ، ورحل ابراهيم مع صديقه وقد
اخترم الهم جسده فزاده نحولا على نحول ، وزين له الشيطان أن
يطلب النجاة من الحياة ... !

ولبت في كنتوكى أياما ، اتى فيها من كرم صاحبه وكرم
أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئا قليلا ، وصاحبه لا يفتأ يسرى
عنه ويتصح له ، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على
هواجس نفسه ، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التي فعل وكان
فيها غير كريم ، بل وكان من الضالين ... بيد أنه لم يلبث وقد
كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق في حاجة
إلى من يعينه ، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب —
ملك عليه قلبه وعقله !

وانقلب الأمر ففدا لنكولن هو الناصح ، وراح يجهد أن
يهدى صاحبه حينما وسوست إليه نفسه معانى كنتك التي كانت
تجول في خاطره هو : معانى الحيرة والتردد والشك . فلقد أصبح
سييد يحار في أمره كما أصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره
إلى الزواج شأنه في ذلك شأن ناصحه . وكان فيما يسديه ابراهيم
من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجدته ؛ على أنه
وهو في كنتوكى كتب رسالة في الانتحار ترينا أن الغمة أو اليأس
كان قد أوشك أن يذهب عنه . خذ لذلك مثلا قوله : « إنى لم أصنع —
في الحياة شيئا يذكر أى إنسان أنى عشت . ومع هذا فإن
ما أعيش من أجله هو أن أربط اسمى بحوادث يومية وجبلى ،
وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولى من الناس جدوى »
ولما عاد إلى سبر بحفيلد ظلت كتبه مدة أكثر من عام تترى
على صاحبه ، وفيها من حسن النصيحة وقوة الاقتناع ورقة العاطفة
ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه وبصور نزعات وجدانه . كان
يمزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه وإلى ما يتحدث
الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم في مجالس لهوم من انقباض
وضيق ، وإلى ما تركته الوراثة في طبعه من شدة التأثر وقوة
الانفعال ؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز
صفاته . وكان عجبا أن ترى مثل ذلك من لنكولن ، فترى فيه
العالم النفساني ، والشاعر الرقيق العاطفة ، وهو الذى علم نفسه
بنفسه ... !

وتزوج سييد بعد ذلك وبق لنكولن حيث هو ، موقفه
اليوم من ماري عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن ؛ فعاد
إليه بذلك ما شغلته عنه قصة صاحبه زمنا من هموم نفسه ؛
وأصبح فإذا هو ضائق بوساوسه . وزاده تبرما بحاله وإنكارا

لنكولن فقال له في غير ولاء ولا استخذاء : إنه يأخذ الأمر على عاتقه ، وإنه لذلك في حل من أن يذيع اسمه . وتم ذلك فكانت المباراة ... فلقد تحدا ذلك السياسي أن ينازله ، وشاع أمر ذلك في الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهم ...

وكان لإبراهيم من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازله القصير ؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد - والناس يتطلعون - على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً . ثم جلس وفي عينيه أنه يريد أن يلقى إليهم حديثاً وراح يحكي ويستجمع الأمثال ... ! وتداخل الناس وسوا ما كان بين المتخاصمين ، وانقلب الجدل الصارم إلى فكاهة عاتبة

يبدأ أن للحادث نصيبه من الأهمية ؛ فلقد ترك في حياة لنكولن صفحة ظل يندى لها جبينه أبداً ، كما حق لما رأى أن تتحدث إلى الناس أن إبراهيم ما فعل هذا إلا دفاعاً عنها وحفاظاً أن ينالها شيء من غضب ذلك السياسي . وطاب إبراهيم بذلك نفساً . وقربت الأيام بينهما حتى باتا من جديد يأخذان الأهبة للزواج . وما هي إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط المقدس وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين

واستثنى إبراهيم نسيم الراحة أن أخذت نترابيل هواجسه ويتضائل هوانه على نفسه ، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى ، وإن كان الدين شهدوا العروسين حين عُقِد قرائنها رأوا لنكولن وعلى وجهه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تنفث حيناً على ما يتكاف من بشاشة ثم تعود فتتغمد ! وأقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة في حجرتين صغيرتين في نزل كانا يدفان أجراً لها أربعة دولارات كل أسبوع . وعظم ذلك على ماري فشكت إلى زوجها ولم يحض على زواجهما غير قليل ، وهو يلقى إليها العاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه ... وبسط الله له رزقه بعض البسط ، فاستقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يدفعوا في غير عمر أجر إقامتهما فيه

وأخذت ماري في بيتها الجديد تدبر شؤونته وترعى أمره ، وقد أخذت لنفسها سلطة ربة البيت لا تننازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور ، حتى لقد كانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كبت وتصرفه عن كبت ، ورائدها

لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سمادته الجديدة بين يدي زوجته ... لذلك لم يكن عجباً أن يلتبس الكينة من جديد عند فتاة ناهد كان قد عرفها قبل أن يعرف ماري . بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى ماري ، فهو لا يستطيع أن يتعد بحباله عنها . قال في كتاب من كتبه : « يخيل إلى أنه ينبغي أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة الملائمة لي ، ألا وهي أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أما على أن يكون كذلك . إن تلك الفكرة ما تزال تريق روحي ؛ ولا معدى لي عن أن ألوم نفسي حتى على مجرد الأمل في السعادة في حين أنها على ما هي عليه »

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأتى لها أن يتصلا إنهما أرادا ذلك . وكانت هي من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعداه من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية ...

ودبر رجل من صحابتهما وزوجه أن يدعواهما إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر . وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن إبراهيم وصاحبتة ربكة المفاجأة . وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التثام الصدع واجتماع الشمل ؛ إذ أصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما أفسد وأن يضع حداً لما هو فيه من شيق وشقاء

وحدث بعد ذلك أمر غريب في ذاته ، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته : ذلك أن إبراهيم ، وهو الرجل الذي ملك القلوب بدمائته ورقة حاشيته ، قد دخل غير متردد ولا هياب في مبارزة تدور على السيف ! وكان لتلك المباراة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن ؛ فلقد نشر إبراهيم في إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التي أذاعها ، وكان التهمك لاذعاً والنقد قاطعاً ، فأنار الكتاب فضول الناس كما أنار ضحكهم وإعجابهم ؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعاينة وكما غفلاء من أسماء أصحاب ... وكان لماري في هذه الردود نصيب . ونارت نائرة ذلك السياسي وراح في المدينة يتهدد ويتوعد ؛ وجاء صاحب الصحيفة فمنفه وتهدهه بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة . وعرض صاحب الصحيفة الأمر على

في ذلك النظام كأدق ما يكون النظام . وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد ، وذلك حين كانت ترى من بعلمها أن يأتي إلا أن يرسل نفسه على سجيئتها ، فكثيراً ما لا يعبأ بما صالح الناس عليه أذواقهم من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام ، أو وهم سامعون في الثوى . وهل كان يستطيع ابن الأحرار أن يتكلف ما لم يجز في طبعه ؟ ولكن امرأته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وتحثه على النظام وأنه ذلك خليف به وله في الناس مكانته ؛ وهي تريد على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير من طبعه . وكان إذا اشتد بها الغضب بلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها ، فإن عجز عن ذلك خرج من المنزل فشى ساعة أو بعض ساعة ...

وحق لزوجها أحياناً أن تغضب منه ؛ فهو سخي اليد وإن كانت به خصاصة ، وهي لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع . وهو يلقى الناس في البيت في هيئة تنم على عدم المبالاة ، ثيابه متهدلة وشعره أشعث ، وعباراته ساذجة ، وهو يستاق على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفي يده كتاب لا يصرف وجهه عنه ؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقرة في الحديقة ، ويحمل اللبن في وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران ؛ ولكن زوجه على الرغم من ذلك تحبسه وتكبره ، وتنتظر ما يجئ به له الفد من جاءه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى ما لا يراه الناس . وكتب لنكولن إلى صديقه سييد يبنه أنه رضى النفس قرير العين ، ويمتدح له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله ، ثم يبشره أن قد سار لها غلام ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية ؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية في حياته ؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح . وأنها كانت ترى بما يشبه اللغاة الطريق المؤدية إلى عليا المراتب ، وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرئاسة ؛ لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته في ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت تدره إلى الطريق السوي إن هو أوشك أن يتكبرها . ويتجلى ذلك في عدة مواقف سيأتي حديثها بعد حين ...

نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة في السياسة والحمامة .

أما في السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون ، كما تجدد الانتخاب ، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية . وأما في الحمامة فقد تركه شريكه ستيوارت إلى وشنطون حيث اتخذ مقعده في المجلس العام للولايات ؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من ماري بثلاث سنوات ؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان ، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة في المدينة ، وكان له من صفات النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن . وكانت له في العمل الرئاسة . ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد في ذلك غصاصة إذ لم يكن منه بد ؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المراتبة والخبرة ؛ وهو قانع بنصيه من الأجر ، وإن كان يرى من زميله أنه لا يعدل في ذلك وإن كان لا يميل كل الميل . ولم يكن ثمت ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ربح السياسة إذ كان كل منهما ينتمى إلى حزب يخالف حزب الآخر ...

ولما قضى الأمر بينه وبين لوجان ، اتخذ له زميلاً آخر . وكان هذا الزميل شاباً دونه في العمر بمشيرة أعوام اسمه هرنندن . وكان هرنندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً ، فتوقفت عرى الصداقة بينهما . وكانت لأبراهام الرئاسة هذه المرة ، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه . وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والدكاء ، كما كان كزيميله في مذهبه السياسي ومن الداعين إلى القضاء على العبيد ...

وعرف إبراهيم في الحمامة بما لم يعرف به أحد قبله في المدينة ؛ فهو بسيط في كل شيء ، يحمل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة ؛ وينظر في تنازع الناس نظرات يوحى بها قلبه قبل أن يرسمها عقله . يرد كل شيء إلى طبيعته إذ كان يقيس الأمور بما كان يدور في نفسه ، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعد من ضروب الخيال والوهم ... ولكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند ، ومن حسن طوبته خيرها

جاء ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المال عند خصم له ؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال : « إني أستطيع أن أريح قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات السبائة ، ولكنني إن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة ، ولن

حلي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

تمة ما نشر في العدد ٢٤٥

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لصر ليونان لروما ،
فيقول في فلاسفة الإغريق :

فذاك أرسطو وذا إقليدس ذو منطق هذا وذا مينندس
وهو ذا سقراط ذاك الأنفس من كان للآداب دوماً يفرس
ثم يكون من سوء حظ ديوجينيس أن يجيء في الشطرة
الخامسة ، قلبه القافية الرائية مصباحه ، ولا يبقى له من فلسفته
الكتابة إلا أن يكون :

وذا ديوجينيس ذو التعري !

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير ، فهو يأمرنا :
أن نمرج نحو مكان الصور حتى نرى أجل صنع البشر
حيث عينه الفئاة لا تخفى عليها خافية :

فهاك كل بطل مبلرز بلوح في أعضائه البوارز
وكل خوذات طرف غامر وأجن من الهوى رومانز
وطلعة تحصف وجه البدر

لاشك أنك تعبت من التجوال — أو من الشعر ! —
والخواجا فرنسيس يشمر بذلك تواً ، فهو يلاحقك بشعره الفلاني
إذ يقول :

تبا لنفس حظها بصرعها وكل ما يازها (كذا) بلذعها
آفتها تضجر بقمها فأينا سارت أتى بصفعها
وربما يلحقها للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خمائية المعلم فرنسيس ، وقد
تكفى الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة «اللو كسمبور»
إلى مسرح «كلسوني» ومن دار البلدية إلى «بولقار ميخائيل»
إلى لقا بدويعه الجليل . ولا ينسى أن يمرج بك على حديقة
النبات ومتحف التاريخ الطبيعي حيث يدور بك شمراً في أقسامه
من الجيولوجيا ، إلى المعادن ، إلى النبات ، إلى الحيوان . ثم هو

أستطيع أن أبين سبيلي إلى ذلك . لذلك أحس في الليل إلى أن
أنصرف عن قضيتك وأجرك . على أني أثبتك نصيحة لا أسالك
عليها أجراً : إذهب إلى بيتك فمكر في طريقة تزيهه تكسب بها
سبائة دولار ... بذلك وبأمثاله آخذ أيب الأمين سبيله إلى
قلوب الناس ، فما منهم إلا مكبره ومحبه . وكان الناس يجيئون
ليحكموه فيما شجر بينهم ، وركلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول
سلفاً ؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض
لا محام ! وهو لا يسألهم أجراً على ذلك ، وحسبه من الأجر منزله
في قلوبهم ...

وكان رفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت
درجته ؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هريدن ، فهو لا يستحي
أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة
كأنه تابعه ! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى
صاحبه : « هذا نصفك » ؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً
أو يطلب من صاحبه كتابة ، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك
وكلاهما يئذل من الأخلاص والود بقدر ما يئذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبيه
حتى لينسج وينتفخ ، ويرونه يدسها في قممته كأنه يجعل منها
قبعة وحقية . كان لا يعني في شيء بمظهر وإن حرص كل
الحرص في كل شيء على الجوهر ... وكان في عمله كما كان في
منزله ، يأتي إلا أن يرسل النفس على سجيته ؛ وسيظل كذلك
حتى تتحقق له كبرى الرياسات .. والله ما كان أعظم تلك البساطة
منه في كل شيء ! وهل تمت بين التكاف المتصنع وبين الصلوك
من كبير فرق ؟ إن أمرها واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولها
ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته ...

الخفيف

(يتبع)

منار الرشيد

كتاب جديد يبحث في المذهب الروحاني

وبه تنظر الروح وترى الله

يباع في مكتبة الحلبي والمكتبة التجارية بالقاهرة

ومنه ١٥ قرشاً